مجلة آفاق علمية ISSN: 1112-9336
مجلد: 12 عدد: 01 السنة 2020 ص 127 - 149

تاريخ الإرسال: 2018/08/14 تاريخ القبول: 2019/12/06
تاريخ النشر: 2020/01/08

ابن خلدون والتأصيل النظري لعلم العمران البشري

Ibn Khaldun and The theoretical construction of Sociology

د. ميمونة مناصرية .
جامعة بسكرة mimouna_menasria@yahoo.fr
د. أم الخير بدوي .
جامعة بسكرة bedouiiibedoui@yahoo.com

ملخص:

أوسع خطوات التقدم في دراسة الوقائع الاجتماعية كانت إبان ظهور الأزمات الاجتماعية، التي تفرض على المفكرين النظر في مختلف الظواهر التي تميز تلك المجتمعات، فعلم العمران لم يصبح موضوعًا لعلمٍ إلا في فترة لاحقة، وكان أَوَّل مَنْ نَبَّه إلى وجوده، واستقلال موضوعه عن غيره من العلوم، ووضع أسسه، هو العلاَّمة ابن خلدون، ستركز هذه الورقة البحثية على مجموعة من النقاط الأساسية والمتعلقة بنشأة هذا العلم، وموضوعاته، أسسه المنهجية.

الكلمات المفتاحية: علم العمران، وموضوعه، قواعد البحث في المنهج الخلدوني، المفاهيم الأساسية للنظرية الخلدونية

Abstract

A broader steps of progress in the study of social facts, It was during social crises So it imposes the thinkers consider the various phenomena of society, Sociology did not become the

subject of science, Only at a later stage. Ibn Khaldun is the founder of sociology, this paper is concerned with the emergence of this science, and his themes, and founded the methodology.

Keywords: The subject of Sociology, Sociology methodology, The basic concepts of the theory of Ibn Khaldun

مقدمة:

يكشف النظر في الأدبيات التاريخية والفكرية التي رصدت المجتمعات العربية الإسلامية في القرن الرابع الميلادي عن وجود ارتكاس اجتماعي لافت، شمل كافة مناحي الحياة، صاحبه تغيرات مفاجئة وتراجع واضح للأنظمة الاجتماعية القائمة، سواء على مستوى بناها الاجتماعية أو على مستوى آداءاتها الوظيفية، إذ بدت الممارسات الاجتماعية محفوفة بالتوتر والارتجال والغرابة في منطق الفاعلين الاجتماعيين، فيما بدا هذا التوتر بحاجة ملحة إلى تشخيص وفق رؤية اجتماعية تقرأ الواقع وتستوعب دواخله وغوائله، بتحليل يستند إلى المنطق العلمي.

دراسات تحلل معطيات الواقع وتتعمق فيه، هذا ما عكسه البحاثة العربي المسلم "عبد الرحمان ابن خلدون" صاحب الذهن الوقاد المثالي في الفكر الشرقي، ممهدا لجملة من العلوم وواضعا أسسا لنظريات واضحة المعالم لا تزال قائمة حتى اليوم، على رأسها علم العمران البشري أو ما يعرف بعلم الاجتماع.

على الرغم من كثرة النقاد والمشككين في أسبقية "ابن خلدون" لتأسيسه هذا العلم، ستعرض هذه الورقة البحثية أحقيته في تأسيسه من خلال تبيان المعالم الفكرية التي أنتجت الفكر الخلدوني، وكذا أثر الظروف الاجتماعية والسياسية التي عاصرها كفاعل حيوي، وصانع للعديد من أحداثها، مع التركيز على أهم الإسهامات السوسيولوجية "لابن خلدون " التي كانت كمحاولة منه في صياغة نظرية سوسيولوجية واضحة المعالم، وصولا إلى عرض قواعد المنهج الخلدوني.

أولا.عبد الرحمان بن خلدون المولد والنشأة

يمكن أن نقسّم حياة ابن خلدون إلى أربعة مراحل متقاربة:

1- مرحلة النّشأة والتّلمذة: وتمتد إلى غاية بلوغه سنّ التّاسعة عشرة، وفي هذه المرحلة «قام بحفظ القرآن، تجويده بالقراءات السّبع، وعلوم العربيّة».

2- مرحلة المناصب السّياسيّة و الوظائف الدّيوانيّة: ودامت خمساً وعشرين سنةً، حيث «قضاها متنقّلاً بين المغرب الأدنى والأوسط والأقصى، وبعض بلاد الأندلس، واستغرقت كلّ وقته وجهده».

3- مرحلة التّأليف: حيث دامت ثماني سنوات تقريباً، وفيها نضج فكر ابن خلدون وتمَّ إلى أن ألّف كتابه الشّهير: "كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السُّلطان الأكبر".

4- مرحلة القضاء والتّدريس: قضى فيها ابن خلدون كلّ هذه المرحلة في مصر متولّياً القضاء والتّدريس، ودامت أربعةً وعشرين سنة.

ألف ابن خلدون في العديد من العلوم، على رأسها علم الاجتماع والتاريخ، والفقه والحساب، والمنطق وعلم الكلام، كما تنسب له بعض الشروح على كتابات الآخرين، ومن أهم مؤلفاته:[1]

1. كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر.

2. المقدمة،

3. شفاء السائل لتهذيب المسائل،

4. لباب المحصل

ثانيا. العوامل التي أثرت في الفكر الخلدوني

تفرد الفكر الخلدوني عن سابقيه من المفكرين والباحثين، يجعلنا نسلط الضوء على أهم العوامل التي شكلت هذه الطفرة في العالم الإسلامي الذي كان يعاني انحطاطا على جميع المستويات، وإن كان البعض من الدارسين للفكر الخلدوني يرجعون هذه الطفرة إلى الذكاء والفطنة التي ميزت عبقرية ابن خلدون ، لكن الذكاء وحده لا يكفي لتعليل ما جاء به من نظرية اجتماعية كبرى. والواقع أن القرون القديمة والوسطى قد أنجبت من المفكرين ما يقارب ابن خلدون في الذكاء وسلامة التفكير، وربما كان البعض منهم أعظم منه في ذلك . فلماذا تفرد ابن خلدون من بينهم بهذه الطفرة في تفكيره الاجتماعي؟

1-الإطلاع الواسع وتكوينه الراسخ في جميع العلوم التي عرفها العرب، من علم التوحيد بجميع دقائقه، ومباحث ما بعد الطبيعية اليونانية الغربية المشهورة بميلها إلى التعميم السريع.[2]

2-الخبرة الاجتماعية الغنية التي مر بها ابن خلدون، فرحلاته كانت مثمرة جدا، حيث حملته إلى أكواخ المتوحشين وقصور الملوك، إلى السراديب المظلمة مع المجرمين، وإلى أعلى قاعات القضاء، إلى مصاحبة الأميين وإلى مزاملة العلماء إلى تراث الماضي وإلى فعاليات الحاضر، إلى الحرمان والألم وإلى الرفاه والانشراح[3].

يقدم "غاستون بوتول" من علماء الاجتماع الفرنسيين وقد أولع بابن خلدون وأشار إلى آرائه في بعض مؤلفاته الاجتماعية، وصدر له في عام 1930 كتابا مستقلا عن ابن خلدون بعنوان" ابن خلدون، فلسفته الاجتماعية" ، فقد أوعز "بوتول" طفرة ابن خلدون الفكرية إلى الظروف الاجتماعية التي كان ابن خلدون يعيش فيها، ولهذا نستطيع أن نعد المنهج الذي سار عليه "بوتول" في هذا الشأن من أقرب المناهج إلى ما يعرف اليوم بـ "اجتماعية المعرفة"، فالمجتمع الذي عاش فيه ابن خلدون تميز بظاهرة اجتماعية قلما نجدها بارزة مثل هذا البروز في مجتمع آخر.

وهذه الظاهرة تتمثل في التباين الصارخ بين أقصى أنواع البداوة وأقصى أنواع الحضارة، مما أدى إلى حدوث فوضى سياسية عنيفة جعلت الدول والإمارات تتابع في ظهورها واختفائها إثر الهجمات التي شنت عليها من قبل البدو المتوحشين•.عاش ابن خلدون في هذا الوضع يريد أن يؤسس لنفسه إمارة وجاها، فدخل معمعة السياسة واشترك في مؤامراتها وتقلباتها، ثم أدرك أخيرا أنه غير موفق فيما أراد، فأخذ يتأمل في أسباب فشله، وجره ذلك إلى أن يسأل نفسه ، كيف تقوم الدولة؟ وما هو أصل البيوت المالكة؟ وكيف ينشأ البيت المالك؟[4] .

مما لا ريب فيه أن عقلانية "ابن خلدون"، على الرغم من أنها غير مألوفة لم تكن وحدها قادرة على أن تحث الإنسان على أن يتساءل ويسأل المجتمع الذي يحف به ويهز كيانه...، فالسبب يعود إلى أن صاحب المقدمة كان مورطا في الأحداث معنيا بها، وملتزما بالمعنى التجريبي للفظة، وهكذا، فإن ملاحظة كهذه تذكرنا بكل سهولة بفكرة "كارل ماركس" الذي كان يعتقد أن "المسألة المتمثلة في معرفة ما إذا كان هناك داع للاعتراف للفكر الإنساني بحقيقة موضوعية ليست مسألة نظرية، ولكنها مسألة عملية...فعلى الإنسان أن يبرهن على الحقيقة في الميدان التطبيقي، أي على الواقع، وعلى قوة فكره في هذا العالم وذلك كله لصالح عصرنا، فالمناقشة حول حقيقة أو وهمية فكرة، تنفصل عن الميدان التطبيقي، تعد مناقشة متجمدة، ليس إلا"[5].

3- يرى "ساطع الحصري" أن ابن خلدون نشأ في كنف أسرة كانت تتقلب بين رياسة علمية ورياسة سلطانية، وكان من شأن هذه البنية العائلية أنها أنتجت في ابن خلدون نزعتين قويتين، حب المنصب والجاه من ناحية، وحب الدرس والعلم من ناحية أخرى، يقول "الحصري":" إن كل واحدة من هاتين النزعتين كانت عميقة الجذور، وشديدة التأثير في نفسية ابن خلدون، إنهما تنازعتا السيطرة على تلك النفسية مدة

طويلة، وتغلبت إلى حد ما، تارة الأولى عن الثانية، وطورا الثانية على الأولى، إلا أن هذه الغلبة لم تصبح حاسمة، في وقت من الأوقات، وظلت النزعتان تؤثران في ابن خلدون طوال حياته.. إن النزعتين المذكورتين تضافرتا على تمكين ابن خلدون من تأليف المقدمة، إن حب المنصب والجاه دفعه إلى خوض غمار الحياة السياسية، ولكن حب الدرس والعلم جعله يتأمل في صفحات هذه الحياة، تأملا نظريا، ليس ليستخرج منها قواعد علمية للحكم والسياسة، بل ليستقرئ منها مبادئ عامة تساعد على إبداع علم جديد هو علم الاجتماع".

4-الوضع الحضاري الذي عاش فيه ابن خلدون، فالقرن الثامن كان من أسوأ القرون التي مر بها العالم الإسلامي من الناحية السياسية.[6]

كانت حياة ابن خلدون في القرن الثّامن الهجريّ، (الرّابع عشر ميلاديّ) الّذي كان يتميّز بميزتين هما: - التفكُّك والانحلال في العالم الإسلامي قابله الانبعاث واليقظة في العالم الغربيّ (أوربا)، ففي الأندلس كانت معظم بلادها قد خرجت من سيطرة المسلمين، وأصبحت تحت حكم الإسبان بما فيها: طليطلة وقرطبة وإشبيليّة، ممّا أدّى إلى جلاء السُّكان المسلمين عن الأندلس إلى المغرب، وكان قد تبقّى جزء صغير في الجنوب الغربيّ من الأندلس تحت حكم المسلمين الّذين كانوا في حالة حرب مع الإسبان.

وأمّا بلاد المغرب فتجزّأت إلى ثلاثة دول: الدَّولة المَرينيَّة في المغرب الأقصى (مراكش)، الدَّولة الزّيانيّة في المغرب الأوسط (الجزائر)، والدَّولة الحفصيَّة في إفريقيا أو المغرب الأدنى (تونس)، وقد تنازعت هذه الدُّول الثَّلاث وكَثُرَت فيها الفتن والاضطرابات وفي قمّتها الصّراع على الحكم أو المُلك بين الآباء والأبناء، أو بين الإخوة، أو بين أبناء العُمُومة والخُؤُولة، فيما دخل ابن خلدون في صميم هذا

الجوّ السّياسيّ المحموم، فعاشه وعانى منه ربع قرن، وظهرت في عصر حركتان هما:

– فتوحات تيمورلنك: فتح تيمورلنك جميع الأقطار بدءً «من الصّين إلى العراق إلى الأناضول إلى بلاد الشَّام» وفي سنة1401م رافق ابن خلدون الملك النّاصر خليفة إلى دمشق في حملته على تيمورلنك، «وقد وفد ابن خلدون على تيمورلنك فأكرم وفادتَهُ وسعى لديه إلى الصُّلح وحقن الدّماء»

– استعداد الأتراك لإنشاء دولة وهي الدَّولة العُثمانيّة.

لقد تعددت العوامل والأسباب التي أسهمت في تشكيل الفكر الخلدوني، وهذه العوامل منها ما هو نفسي وما هو اجتماعي وما هو حضاري، وهي تتجه في كلياتها إلى إثارة الحيرة والتساؤل، وكذا الصراع النفسي، فلم تكن إذن العبقرية لتكون ظاهرة نفسية اجتماعية إلا أن تكون نتيجة عوامل خارجية تساعدها على الظهور في إنسان ما دون غيره ممن يماثلونه في الذكاء والتفكير، هذا الذي ميز ابن خلدون عن سابقيه من المفكرين.

ثالثا. النظرية السوسيولوجية الخلدونية

شكك الكثير من النقاد في الطرح الخلدوني على أنه استفاضة في فلسفة التاريخ، وأنه بعيد كل البعد عن ما يسمى اليوم بعلم الاجتماع، وأصحاب هذا الطرح كثيرون من بينهم طه حسين...الخ، من أجل تأكيد صحة ذلك وجب الخوض في مجموعة من المسائل الضرورية التي تتمحور حول مشروعية هذا العلم، ما هو موضوعه؟ وما هي مناهجه ؟

1– علم العمران، وموضوعه:

كان يتوجب على ابن خلدون أن يثبت أولا، أن هذا المنطق الذي اكتشفه هو علم حقاً، جدير بأن يحمل لقب علم، وأن يبرهن ثانيا على أن هذا العلم، علم

جديد، لم يسبقه إليه أحد من المتقدمين وأنه يختلف اختلافا جوهريا عن العلوم المعروفة حتى عصره، والسبيل الوحيد لإثبات مشروعية هذا العلم، لا يكون إلا وفق قوانين المنطق السائدة.[7]

بخصوص المسألة الأولى يتعين البحث فيما إذا كان هذا العلم الجديد تتوافر فيه شروط العلم، فما هي هذه الشروط؟ كان المناطقة القدماء يرون أنه لابد أن تتوافر في كل علم برهاني الأركان الأربعة الآتية: الموضوع، والأعراض الذاتية، والمسائل، والمبادئ أو المقدمات...تلك هي الشروط التي يجب أن تتوافر في كل علم برهاني، حسب المنطق القديم، ...فالعلم بهذا المفهوم يبحث في خواص الأشياء التي تشكل موضوعه، لا في العلاقات القائمة بينها، فالهدف هو الكشف عن "طبائع" الأشياء، لا عن القوانين التي تتحكم فيها أو تربط بعضها ببعض.

والمسألة الثانية تتعلق بالمنهج، إذ أن العلوم البرهانية علوم استدلالية، مقدمات فنتائج، وهي لا تعتمد الاستقراء إلا من حيث أنه يساعد على إثبات المبادئ والأفكار التي تقرر سلفا، على أساس هذا التصور لـ"العلم"، ووفقا لتلك الشروط بنى "ابن خلدون" علمه الجديد "علم العمران"، وقد حرص على بيان أن هذا العلم تتوافر فيه الشروط المذكورة، [8]حيث يقول:" ...وكأن هذا علم مستقل بنفسه، فإنه ذو موضوع، وهو العمران البشري والاجتماع الإنساني، وذو مسائل، وهي ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته واحدة بعد الأخرى. وهذا شأن كل علم من العلوم وضعيا كان أو عقليا، وأعلم أن الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة غريب النزعة، عزيز الفائدة أعثر عليه البحث، وأدى إليه الغوص"[9].

إن مهمة علم العمران إذن، هي البحث في الأعراض الذاتية التي تلحق الاجتماع البشري، أي الظواهر الاجتماعية. ولكن هذا البحث لا يستهدف دراسة القوانين التي تسير هذه الظواهر وفقها، بل يرمي إلى بيان أن هذه الظواهر تحدث

في العمران البشري بـ" الطبع"، أما نوع هذه الأعراض الذاتية، فإن ابن خلدون يعطينا أمثلة منها في مكان آخر،[10] إذ يقول:"أعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال، مثل التوحش والتأنس والعصبيات، وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع، وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال".[11]

لقد رأى بن خلدون ضرورة تحديد موضوع هذا العلم وأسسه المعرفية بقوله: "...ونحن الآن نبين في هذا الكتاب ما يعرض للبشر في اجتماعهم من أحوال العمران في الملك والكسب والعلوم والصنائع، بوجوه برهانية يتضح بها التحقيق في معارف الخاصة والعامة، وتدفع بها الأوهام وترفع الشكوك".[12]

أ.ضرورة الاجتماع البشري القائمة على طبيعة الإنسان، بما يميز هذا الكائن من قدرات فكرية، وحاجة الآخرين كشرط لبقائه.

ب.ضرورة قيام النظام والتنظيم، فضرورة الاجتماع تستدعي قيام نظام، يضبط وينظم العلاقات بالوازع والسلطان القاهر.

ج.ضرورة البقاء والاستمرارية وذلك بالسعي في المعاش، والعمل على تحصيله، واكتساب أسبابه، بما يرتبط وحاجاته.

د." العمران هو التساكن والتنازل في مصر أو حلة للأنس بالعشير واقتضاء الحاجات، لما في طباعهم من التعاون على المعاش.. ومن هذا المعاش ما يكون يدويا، وهو الذي يكون في الضواحي وفي الجبال وفي الحلل المنتجعه في القفار وأطراف الرمال، ومنه ما يكون حضريا، وهو الذي في الأمصار والقرى والمدن

والمدر، للاعتصام بها والتحصن بجدرانها...وله في كل هذه الأحوال أمور تعرض من حيث الاجتماع عروضا ذاتيا له". [13]

هذا عن الموضوع، والأعراض الذاتية والمسائل، أما عن المقدمات التي يقوم عليها البرهان في علم العمران، فإن ابن خلدون لا يشير إليها بشكل مباشر، ولكنه يؤكد مرارا أن براهينه في هذا العلم براهين وجودية طبيعية، بمعنى أنها تستند على ما يحدث في الواقع الاجتماعي. ومن ثمة فإن مبادئ البرهان في علم العمران البشري ستكون قضايا تجريبية اكتسبت يقينها من الحس والعقل معا، أي بالمشاهدة والتكرار، وكمثال على ذلك نشير إلى هذه القضية التي يستند عليها ابن خلدون في كثير من براهينه، وهي أن" الإنسان مدني بالطبع"[14] فلا يتصور وجوده إلا في مجتمع، وأنه لابد، ليتم الاجتماع البشري من وازع يدفع عدوان الناس بعضهم على بعض، وهو الملك والسلطان. هذه القضية ليست من أوليات العقل، لأن في مستطاع الإنسان أن يتصور إنسانا بدون مجتمع، ومجتمعا بدون سلطة أو حكم، ولكنها قضية تجريبية، أو إحدى بديهيات الحس والتجربة.

علم العمران إذن تتوافر فيه الشروط المطلوبة، فهو لذلك جدير بهذا الاسم، ولكن هل هو علم جديد حقاً؟ للتأكد من هذه المسألة لا داعي لمقارنته بجميع العلوم المعروفة، بل يكفي إثبات مخالفته للعلوم التي يحتمل أن تلتبس به موضوعا وغاية، وعلى رأس هذه العلوم، علما الخطابة والسياسة المدنية، ووجه المخالفة بينهما وبين علم العمران واضحة جلية، ذلك أن علم الخطابة "إنما هو الأقوال المقنعة النافعة في استمالة الجمهور إلى رأي أو صدهم عنه" فهو أحد العلوم المنطقية، وفرق واضح بين "استمالة الجمهور" وبين ما يحدث في الاجتماع الإنساني بمقتضى طبعه. وأما علم السياسية المدنية فهو يهدف إلى "تدبير المنزل أو المدينة بما يجب بمقتضى الأخلاق والحكمة ليحصل الجمهور على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاؤه". وهذا

شيء مخالف تماما لما يهدف إليه علم العمران: إن السياسة المدنية تهدف إلى بيان ما ينبغي أن يكون، في حين أن علم العمران يدرس ما هو كائن. إذن فقد خالف موضوع هذين الفنين الذين ربما يشبهانه.[15]

وفي هذا الصدد لقد عقد كثير من الباحثين مقارنة بين "مكيافيلي" – الفيلسوف الايطالي الذي عاش في القرن 16 عشر– و"ابن خلدون" ...إذ حاول "مكيافيلي" في كتابه الرئيسي "الأمير" أن يضع أسس الحكم ويبين كيفية إقامة الدول والتوسع فيها حتى يستطيع أن يهتدي بآرائه من يريد من الحكام، ولقد جاءت المبادئ التي وضعها غاية في القسوة وبعيدة كل البعد عن الأسس الأخلاقية. فبينما "الأمير" يخدم غايات عملية، نجد المقدمة بعيدة كل البعد عن هذا الهدف.[16]

فطروحات كتاب "الأمير" جاءت توضح ما يجب أن يكون في حين أن المقدمة درست ما هو كائن وواقع فعلا على مستوى الحياة الاجتماعية وهنا يكمن الفرق الجوهري بين ابن خلدون ومكيافيلي.

يقول "ابن خلدون" حول اشتراك علم العمران من ناحية الموضوع بعلوم أخرى موضحاً كالآتي: هذا الفن الذي لاح لنا النظر فيه نجد منه مسائل تجري بالعرض لأهل العلوم في براهين علومهم، وهي من جنس مسائله بالموضوع والطلب[17]، ومن ذلك ما يرد في بعض أقوال الحكماء وما يذكر في بعض أبواب الفقه من أمور لها مساس بالشؤون الاجتماعية أو السياسية التي يبحث فيها هذا العلم الجديد، ولكن لا هؤلاء ولا أولئك اتخذوا هذه المسائل موضوعا لدراسة مستقلة، وإنما ترد عندهم–عرضا– وبمناسبات مختلفة.

يثبت "إبن خلدون" في مقدمته أنه كان أول من تناول هذا العلم، وحدد موضوعه ومنهجه، إلا أنه يشير إلى بعض الاجتهادات لمن سبقوه على رأسهم "إبن المقفع" و"الطرطوشي" وفي هذا يقول :" كذلك تجد في كلام ابن المقفع وما يستطرد

في رسائله من ذكر السياسات الكثير من مسائل كتابنا هذا غير مبرهنة كما برهناه، إنما يجليها في الذكر على منحى الخطابة في أسلوب الترسل وبلاغة الكلام، وكذلك حوم القاضي أبوبكر الطرطوشي في كتاب سراج الملوك وبوبه على أبوابه تقرب من أبواب كتابنا هذا ومسائله، لكنه لم يصادف فيه الرمية ولا أصاب الشاكلة، ولا أستوفى المسائل، ولا أوضح الأدلة، إنما يبوب الباب للمسألة، لم يستكثر من الأحاديث والآثار، وينقل كلمات متفرقة لحكماء الفرس ...وحكماء الهند...وغيرهم من أكابر الخليقة، ولا يكشف عن التحقيق قناعا، ولا يرفع بالبراهين الطبيعية حجابا، إنما هو نقل وتركيب شبيه بالمواعظ وكأنه حوم على الغرض ولم يصادفه ولا تحقق قصده، ولا استوفى مسائله"[18].

واضح من هذا أن ابن خلدون يرى أن الفرق الأساسي بين علمه الجديد، وبين كتاب السياسة للطرطوشي، ليس فرقا في الموضوع أو في المسائل، وإنما هو فرق في المنهج. لقد اتخذ "الطرطوشي "موضوعا لكتابة قضايا الحكم، وسياسة الملوك وآدابها، ومزايا الحكم الصالح والقواعد التي يجب أن يراعيها الحكام في تدبير شؤون رعاياهم، كما عرض للمراتب السلطانية، والوظائف الحكومية، ومالية الدولة وجنودها، وغير ذلك مما تعلق بتدبير الحكم، وهذه المسائل هي جزء من المسائل التي يبحث فيها علم العمران، بل إنها تشكل المحور الأساسي الذي تدور عليه أبحاث ابن خلدون في مقدمته. ولذلك فانه يعترف بأن "الطرطوشي" "قد حوم على الغرض"، أي أنه قد اقترب من تصور هذا العلم الجديد.

ولكن مع ذلك فإن صاحب علم العمران كان واعيا للفرق الجوهري بين مقدمته وكتاب "سراج الملوك". فقد سلك الطرطوشي في كتابه مسلك القدماء، فهو يذكر المسألة موضوع البحث ثم "يستكثر من الأحاديث والآثار..."، فطريقته طريقة وعظية تستند على الإقناع الخطابي، لا على البرهان العقلي. بينما ابن خلدون اتخذ

لنفسه منهجا آخر، منهجا يستهدف دراسة الظواهر كما هي، يعتمد في النتائج التي يقررها على البرهان، لا على الإقناع الخطابي [19]، فما هو هذا المنهج وما طبيعته وما خصائصه؟

2- قواعد البحث في المنهج الخلدوني

إن معظم الذين ساهموا في تقديم الدراسات الاجتماعية الحديثة، خاصة منها علم الاجتماع الحديث، قبل أن يستقل نهائيا على يد "دوركايم"، قد نظروا إلى الظواهر الاجتماعية نظرة مستمدة من تصورهم للطبيعة وظواهرها، وهكذا عرف علم الاجتماع الحديث اتجاهات بيولوجية (سبنسر)، وميكانيكية آلية (هاريت وباسيلو)...، ولم يشذ عن هذا حتى أوغست كونت" الذي يعتبر المؤسس الفعلي لعلم الاجتماع، فقد تصور هو الآخر علمه الجديد على غرار علوم الطبيعة خاصة منها الفيزياء، فأطلق عليه أول الأمر اسم" الفيزياء الاجتماعية"، قبل أن يركب له اسما خاصا"السوسيولوجيا".

و"ابن خلدون" قد فعل مثل ذلك، فقد تصور هو الآخر علمه الجديد على غرار طبيعيات عصره التي هي امتداد لطبيعيات "آرسطو" إذ يعرف المناطقة قديما العلم الطبيعي بأنه، العلم الذي ينظر في جسم العالم وفي ما يعرض له من الأحوال لذاته مثل التوحش والتأنس والعصبيات والملك...الخ، فكما أن علم الطبيعة –قديما– يبحث في طبائع المادة، أي في الخصائص الملازمة لها، أو أعراضها الذاتية التي تحدث فيها بالطبع، فكذلك علم العمران يبحث في "طبائع" العمران ومفهوم الطبائع هنا، أساسي في تصور "ابن خلدون" للاجتماع البشري، وهو نفس تصور علماء الطبيعة قديما لطبائع المادة، فالحركة والسكون والتغير تحدث في الجسم الطبيعي، لا بفعل عوامل خارجية، ولا بفعل العلاقات القائمة بين الإنسان في الطبيعة بل تحدث فيه "بالطبع"، فالحجر مثلا يتحرك إلى الأسفل لأن من طبيعته أن يحصل له ذلك،

فالحركة إلى الأسفل حركة بالطبع...وكذلك الشأن بالنسبة إلى الظواهر العمرانية، ابتداء من ظاهرة الاجتماع إلى ظاهرة الدولة، فكما انه من طبيعة الإنسان الاجتماع والتعاون، لتحصيل غذاءه والدفاع ضد عدوان الحيوانات عليه، فإن فيه أيضا طبعا حيوانيا هو العدوان.

ومن هنا كان الآدميون "بالطبيعة الإنسانية يحتاجون في كل اجتماع إلى وازع وحاكم يزع بعضهم عن بعض" وهو الملك. وهكذا فكما أن الملك طبيعي في الاجتماع البشري، فإن "العوارض المؤذنة بالهرم...تحدث للدولة، وكلها أمور طبيعية، وإذا كان الهرم طبيعيا في الدولة كان حدوثه بمثابة حدوث الأمور الطبيعية، كما يحدث الهرم في المزاج الحيواني". [20]

فالمبدأ إذن ليس قضية شروط معينة إذا توفرت حصلت نتائج معينة، وإذا زالت رُفعت تلك النتائج، بل إن المسألة هنا مسألة طبع ملازم للظاهرة الاجتماعية مادامت موجودة. نعم هناك أعراض غير ملازمة للشيء ملازمة الذاتي له، هي أعراض مفارقة تحدث بالفعل عوامل خارجية وتزول بزوال هذه العوامل، والعلم الطبيعي لا يبحث في هذه الأعراض المفارقة، لأن العلم الحقيقي، حسب المفهوم القديم، هو علم بما هو ثابت أي بما هو بالطبع وكذلك الشأن في علم العمران، فهو يبحث "فيما يلحق–العمران– من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه" أما ما يكون عارضا، أي عرضا مفارقا فهو "لا يعتد به" مثله في ذلك مثل "مالا يمكن أن يعرض له". إن "ابن خلدون" لا يهدف إلى دراسة الظواهر الاجتماعية بغية التعرف على القوانين التي تتحكم فيها كما يقول بذلك معظم الباحثين، بل إنه يهدف إلى بيان ما يحدث في العمران بمقتضى طبيعته، وفرق شاسع بين فكرة القانون كما نفهمها اليوم، وفكرة الطبع كما كان يفهمها القدماء.

إن فكرة القانون باعتبارها علاقة ضرورية بين حادثتين، أو مجموعة من الحوادث، لم تكن قد تبلورت بعد، ولم تكن العلاقات بين الأشياء تستأثر باهتمام العلماء، وإنما كانت أنظارهم منصرفة إلى دراسة خصائص الأشياء، الخصائص الثابتة الملازمة لها دوما، والتي تشكل "طبيعته"، على أن "ابن خلدون" يذهب إلى أبعد من هذا في بنائه لعلمه الجديد على غرار طبيعيات عصره، فكما أن النظر في الطبيعيات كان يتناول أولا البحث فيما يلحق سائر الأجسام أولا، ثم البحث بعد ذلك فيما هو أخص، كالنظر في حكم البسيط والمركب، فكذلك علم العمران يبدأ بالبحث في العمران البشري على الجملة "ضرورة الاجتماع والسلطة، قسط العمران من الأرض، تأثير الهواء في أخلاق الناس وأحوالهم، تأثير الخصب والجوع...تأثير العالم العلوي". ثم بعد ذلك يبحث في البسيط من العمران "العمران البدوي"، ثم في المركب "العمران الحضري"، ليس هذا فحسب، بل انه لا مادة بدون صورة ، فكذلك لا يمكن أن يقوم عمران بدون ملك ودولة...وكذلك الشأن بالنسبة إلى عمر الدولة وطول أمدها فهي تابعة في ذلك لقوة العصبية[21].

إن ابن خلدون خلافا لما يذهب إليه بعض الباحثين–لم يتحرر نهائيا من أطر التفكير القديمة، فقد بنى ملاحظاته في ميدان السياسة والاجتماع والحكم طبقا لقوالب الفكر السائدة وهي قوالب المنطق الآرسطي...،** ومع أنه كان يرى أن القياس لا يصلح في ميدان العمران "ولا يقاس شيء من أحوال العمران على الآخر، إذ كما اشتبها في أمر واحد، فلعلهما اختلفا في أمور، فتكون العلماء لأجل ما تعودوه من تعميم الأحكام وقياس الأمور بعضها على بعض، إذا نظروا في السياسة أفرغوا ذلك في قالب أنظارهم ونوع استدلالهم، فيقعون في الغلط كثيرا ولا يؤمن عليهم.."[22]

على الرغم من ذلك كله فقد بقي "ابن خلدون" في تصوره للعمران البشري وعوارضه الذاتية متمسكا بمقولات المنطق القديم، لقد انتبه إلى أنه في ميدان البحوث

الاجتماعية، تجب مراعاة "الإمكان الواقعي" لا "الإمكان العقلي المطلق لأنه لا يفرض حدا بين الواقعات"....ولكنه سواء بشعور منه أو بدون شعور، قد أخضع الإمكان الواقعي هذا لقوالب فكرية معينة، قوالب "فوق واقعية"، وبذلك إلى درجة أنه لو سحبنا ملاحظات ابن خلدون السياسية والاجتماعية من هذه القوالب، لوجدنا أنفسنا أمام مجرد "وصف طوبوغرافي" لبعض الحوادث الاجتماعية والتاريخية ومن ثمة تفتقد آراء ابن خلدون ذلك اللحام الذي جعل منها نظريات متماسكة إلى حد بعيد، وهذا يعني بصريح العبارة أن صاحب المقدمة لم يكن ذا منهج تجريبي خالص، كما يؤكد ذلك بعض الباحثين، فهو لم يكن يعمد إلى الاستقراء ليستخلص منه النتائج، بل كان يضع النتائج أولا، ثم يلجأ بعد ذلك إلى استقراء الحوادث لتأييد صحتها هناك، أو أحكام عامة أولا، ثم هناك محاولة للبرهنة على صحتها بناء على مقدمات سبق تقريرها، وأمثلة منتقاة من حوادث التاريخ، انتقاء لا يخلو من تعسف في بعض الأحيان[23].

إن الاستقراء هنا ليس أساسا للبرهان، بل هو مكمل له من جهة، وشارح للمبدأ العام المقرر من جهة أخرى، وهذا ما جعل منهج ابن خلدون لا هو بالاستقراء التجريبي ولا هو بالاستنباطي المحض، بل هو مزيج منهما معا. فهو منهج استقرائي تاريخي، لأنه يعتمد في البرهان على استقراء جملة من الحوادث التاريخية في تسلسلها الزمني، إن ابن خلدون يتتبع ظواهر العمران واحدة بعد الأخرى، حسب أسبقيتها الزمنية، لقد بدأ بالعمران البدوي وعوارضه الذاتية، كالنسب والحسب والعصبية فالغلبة والملك والدولة، لينتقل إلى العمران الحضري وما يختص به من بناء المدن والأمصار، وما ينشأ فيه من الاحتكاك والتبادل والخيرات...إنه من هذه الناحية، يبدو وكأنه يؤرخ لظواهر العمران، مما جعل بعض الباحثين يرون في مقدمته نوعا من " تاريخ الحضارة" [24].

حدد "ابن خلدون" الكثير من قواعد المنهج الذي يجب أن ينتهجه المؤرخ من خلال نظره "في الاجتماع الإنساني الذي هو العمران"، ولم يكتف في هذا المجال بنقد من سبقه من المؤرخين دون التعرف على مقاصدهم الحقيقية فيما يروون أو يؤرخون، ومن خلال تشيعهم للعديد من الآراء والمذاهب حيث جعلهم ذلك التشيع أسرى لآراء معينة، علاوة على جهل أولئك المؤرخين السابقين على "ابن خلدون" بطبائع الأحوال في العمران فلم يمحصوا الحوادث كما يجب، كل ذلك فضلا عن تقرب العلماء والمؤرخين من أصحاب الجاه والسلطان من خلال ما يقدمونه لهم من دراسات وأبحاث وكتب.

نقول إن "ابن خلدون" لم يكتف بنقد سابقيه وإنما قدم البديل منهجا واضحا للبحث يكاد يكون على أصالته حتى اليوم، حيث حدد واجبات المؤرخ والباحث في تناولهما لظواهر العمران على النحو الآتي: [25]

- يجب الاعتماد على الملاحظة المباشرة وما تؤدي إليه التجربة العملية من خلال منهج التجريب الذي ابتدعه ابن خلدون.
- يجب تفسير الظواهر وتحليلها واستخدام منطق "التعليل".
- يجب الاعتماد على منطق المقارنة أو منهج البحث المقارن.
- يجب قياس الأخبار على أصول المادة وطبائع العمران.
- يجب دراسة تطور الظواهر والنظم العمرانية في سياق غيرها من الظواهر المجتمعية.

هذا وقد ارتكز "ابن خلدون" في دراسته للظواهر الاجتماعية على ركيزتين أساسيتين، أولاهما إخضاع تلك الظواهر لملاحظات حسية وتاريخية، أو بمعنى آخر كان يقوم أولاً بدراسة استطلاعية لتلك الظواهر معتمدا على مشاهداته واستقراءاته لما في بطن التاريخ، علاوة على معايشته الذاتية للعديد من تلك الظواهر، أما الركيزة

الثانية فتتمثل في العديد من العمليات العقلية التي كان يجريها ابن خلدون على تلك المواد الأولية التي تحصل عليها، وكان هدفه الأساسي من تلك العمليات هو الكشف عما يحكم تلك الظواهر أو يسيرها من قوانين.

3- المفاهيم الأساسية للنظرية الخلدونية:

كانت البداوة والتحضر وما بينهما من صراع أزلي هما محور النظرية السوسيولوجية عند ابن خلدون، حيث نظر في أحوال مجتمعه فوجد الناس مستقطبين حول فئتين رئيسيتين هما البدو والحضر، ثم نظر في هاتين الفئتين فوجد أن لكل منهما صفات مغايرة تماما للأخرى إلى حد التضاد، وتعمق أكثر فوجد أنهما –البداوة والتحضر– في تفاعل مستمر، فاستنتج أن المجتمع في جميع حوادثه الماضية والمستقبلية ليس سوى نتاجا لهذا التضاد بين هاتين الظاهرتين المتصارعتين دوما.

من أبرز ما أوضحته النظرية السوسيولوجية الخلدونية أن العصبية هي أساس البداوة، وأنها لا تستقيم بغير وازع من سلطان أو دين–أي بالقهر– كما أن التفاعل بين البداوة والتحضر لا يتم في فراغ، وإنما يتم داخل محتوى المجتمع أو الدولة التي اعتبرها ابن خلدون كالكائن الحي العضوي لها عمر محسوس قدره بأربعة أجيال.

ويمكننا أن نوجز أهم ملامح النظرية السوسيولوجية عند ابن خلدون على النحو الآتي: [26].

أ. بعد أن بين "ابن خلدون" خصائص ظاهرة البداوة بما تضمنته من متناقضات عديدة.. وقرر أنها ليست من صنع البدو بقدر ما هي من صنع الطبيعة لأن الإنسان:"ابن عوائد ومألوفه لا ابن طبيعته ومزاجه"

ب. أبرز ابن خلدون التناقض الموجود بين خصائص كل من ظاهرتي البداوة والتحضر، والنتيجة الطبيعية والحتمية لذلك التناقض في رأيه هي الصراع الذي اتخذ أشكالا متعددة لعل أبرزها موجات الهجوم المتتابعة من البدو على الحضر، وأوضح

ابن خلدون أن ذلك الصراع يرتكز على دعامة أساسية ألا وهي العصبية، ولكن العصبية لا تقوى إلا من خلال التوحد نتيجة لدعوة دينية أو ما شابه ذلك، وبدون ذلك التوحد فإن العصبيات المتفرقة داخل المجتمع القبلي تكون مشغولة بالصراع مع نفسها في معظم الأحيان.

ج. حدد ابن خلدون المجالات والأسباب المتعددة لصراع القيم، وأوضح أن من تلك الصراعات ما يكون داخليا–أي بين القبيل ونفسه أو بينه وبين غيره من القبائل– ومهما يكون خارجيا، أي ينحصر مجال الصراع القيمي بين البداوة ونقيضها الأزلي.. الحضر، كما أكد أن أي تناقض أو ضعف للقيم البدوية يؤدي بالضرورة إلى التحول البدوي عن بداوته بنفس درجة تناقص القيم البدوية لديه.

د. فسر ابن خلدون أسباب ظاهرة البداوة والتحضر بإرجاعهما إلى عوامل اقتصادية وسياسية وطبيعية ودينية...الخ، كما أوضح أن الظواهر الاجتماعية، المختلفة لا تتوقف العلاقة بينها على حد التأثر فقط، بل تتسع بالضرورة إلى حد التأثير أيضا وبحيث يستتبع أي تغير في ظاهرة ما تغير في غيرها من الظواهر المرتبطة بها بصرف النظر عن حجم ونوع ذلك التغير، ومن هنا يكون ابن خلدون قد آمن بوجود علاقة تساندية بين مختلف الظواهر المجتمعية، ويكون أول من فسر وعلل الظواهر الاجتماعية بظواهر اجتماعية أخرى سواء في حالة الاستقرار أو التغير.

هـ .أكد ابن خلدون ما للظواهر الاجتماعية بدوية كانت أو حضرية من حتمية قننت مسيرة تطور العمران البشري والاجتماع الإنساني، سواء كان ما عايشه أو كما سمع أو قرأ عنه من خلال كتب التاريخ.

و. اقتصرت استقراءات ابن خلدون للظواهر الاجتماعية المختلفة على النطاق الإقليمي أو العربي الإسلامي فقط، وعلى وجه التحديد من استطاع أن يعايشهم أو

يقرأ عنهم، بيد أنه لم يقتصر في استنتاجاته على النطاق الإقليمي والإسلامي فقط، بل وسع تلك الاستنتاجات لتضم الاجتماع البشري ككل.

والواقع أن علماء جاءوا بعده بعدة قرون، لعل أبرزهم "إميل دوركايم" خلال دراسته المشهورة عن الانتحار، نادى بصلاحية نظريته عن الانتحار للتطبيق على كل المجتمعات رغم أنها أجريت داخل نطاق مجتمع محدود وفي ظل عقيدة دينية محدودة الانتشار هي العقيدة البروتستانتية.

ي. قدم "ابن خلدون" تصنيفا للمجتمعات التي عايشها أو عاصرها أو تلك التي أتيحت له الفرصة للاطلاع على تراثها، وقسم تلك المجتمعات إلى نموذجين رئيسيين، يتناقض كل منهما مع الآخر على طول الخط، وبينهما صراع أزلي يمتد عبر أربعة أجيال، ويمكن أن نوجز رأى ابن خلدون في النقاط الآتية: [27]

- المجتمع يتكون من نمطين رئيسين، أولهما القطاع البدوي، والثاني الحضري، والبدو أسبق للوجود من الحضر.
- أن القطاع البدوي سائر حتما للتحضر عبر أجيال أربعة تبدأ من حالة البداوة إلى حالة الملك فحالة التحضر ثم حالة الهرم، وهي نهاية دورة المجتمع البشري عند ابن خلدون، حيث تبدأ بعدها دورة جديدة وهكذا.
- أن هناك فوارق ليس فقط بين النمطين الرئيسيين في المجتمع، ولكن بين البناء الاجتماعي لكل نمط على حدة، وقد تكون هذه الفروق فروقا أيكولوجية أو حضارية بين الوحدات المحلية لكل من النمطين البدوي والحضري على حدة.
- قدم ابن خلدون معيارا مبتكرا للبداوة اتخذه أساسا للتفريق بين سكان البادية، أطلقنا على ذلك المعيار "سلم أو مقياس البداوة"، وقد طبق ابن خلدون هذا المعيار على البداوة العربية حيث وضع البدو على مستويات ثلاث طبقا لمدى

ظعنهم في الصحراء" أي تجوالهم فيها" وطبقا لمدى بعدهم عن مظاهر الحضارة وحرصهم على مظاهر البداوة وقيمها.

لم يؤمن ابن خلدون بوجوب السلطة في مجتمع ينظمه المنطق والعقل، فبعد أن استنفذ بحثه لكل فكرة منطقية نظرية، أو تطبيقية عملية، درس أسس امتداد التسلط السياسي دراسة موضوعية، وبناء الدول وانهيارها، ثم وقف عاجزا عن تفسير حادثة دورية تصيب المجتمع، خارجة عن إرادة الإنسانية، وعن تحديد أسباب دورانها المنظم، واعتقد بأن دراجة المجتمع لن تساعده على حل هذه المشكلة. لقد كان ابن خلدون في ذلك قديرا حقاً، والنظرية التي انتهى إليها تشبه الدورة التي شرحها أفلاطون. [28]

خاتمة:

إن الطرح الخلدوني يعد عملاً عظيماً في مجال الأبحاث السوسيولوجية، حيث أرسى أصول السوسيولوجيا العربية الإسلامية، فكان بذلك أول الباحثين الذي وضعوا أسسها، وحددوا موضوعها ومناهجها، كما وضع مفاتيح بعض التحليلات أو بمعنى آخر أعطانا بعض المفاهيم العبقرية التي سبق بها عصره وهو آخر سلسلة المفكرين العظام الذي ظهروا في الحضارة العربية الإسلامية في العصور الوسطى، كما أن أبحاثه كانت سندا لقيام النظريات السوسيولوجية المعاصرة، وما قاله "جارودي" في مقاله عن ابن خلدون: "إن ابن خلدون واحد من هذه المصادر العظيمة الخصبة التي تفخر بها الاشتراكية العلمية اليوم بصفة عامة، والتي يفخر بها الاشتراكي العربي بصفة خاصة".

المراجع:

[1] منى أحمد أبو زيد، الفكر الكلامي عند ابن خلدون،المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع:بيروت– لبنان.1997، ص09.

[2]–طه حسين.فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، ترجمة: محمد عبد الله عناد، مطبعة الاعتماد: مصر، 1925،ص30.

[3]–علي الوردي، منطق ابن خلدون ، ط2، دار كوفان: لندن ،1994، ص106.

• شرح التوحش حسب ابن خلدون.

[4]–نفس المرجع، ص ص109–110.

[5]– عبد الغني مغربي،الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون،ترجمة: محمد الشريف بن دالي حسين،ديوان المطبوعات الجامعية:الجزائر1988،ص29.

[6]– نفس المرجع،ص ص 110–130.

[7]– محمد عابد الجابري،فكر ابن خلدون العصبية والدولة، ط6،مركز دراسات الوحدة العربية: بيروت–لبنان، 1994،ص103.

[8]– نفس المرجع، ص ص103–105.

[9]– عبد الرحمان بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار الفكر للطبع والنشر: بيروت–لبنان، 2001، ص49

[10]– محمد عابد الجابري، مرجع سابق، ص105.

[11]– عبد الرحمان ابن خلدون، مرجع سابق، ص46

[12]

[13]– إبراهيم عثمان، مقدمة في علم الاجتماع، دار الفكر: عمان–الأردن،2001، ص ص 15–16.

[14]– عبد الرحمان ابن خلدون ،مرجع سابق، ص54.

[15]– محمد عابد الجابري، مرجع سابق، ص105.

[16]– زينب الحضري، فلسفة التاريخ عند ابن خلدون،دار الثقافة: القاهرة–مصر،1989، ص07.

[17]– نفس المرجع، ص52.

[18]– محمد عابد الجابري، مرجع سابق، ص ص106–107.

[19]– نفس المرجع، ص ص107–108.

[20]– نفس المرجع ،ص ص108–109.

[21]– نفس المرجع ،ص ص108–109.

[**]– يرى "علي الوردي "في كتابه منطق ابن خلدون على أنه كان ثائرا على الفلسفة القديمة بوجه عام وعلى المنطق الآرسطي بوجه خاص، حيث جاء ابن خلدون ثائرا على المنطق الصوري الآرسطي، فهو يريد من المفكرين أن يكونوا أولي منطق مادي.

[22]– نفس المرجع، ص ص107–108.

[23]– نفس المرجع، ص ص107–108.

[24]– نفس المرجع ،ص ص108–109.

[25]– صلاح مصطفى الفوال،المدخل لعلم الاجتماع الإسلامي، دار غريب: القاهرة–مصر، 2000،ص ص186–187.

[26]– نفس المرجع، ص ص 182–184.

[27]– نفس المرجع، ص185.

[28]– غاستون بوتول، تاريخ السوسيولوجيا، ترجمة: ممدوح حقي،منشورات عويدات: بيروت،باريس، 1977،ص ص27–28.